الاكاديمية الفرنسوية

او المجمع اللغوي الادبي الفرنسوي

نسمع نحن الشرقيين بانتشار عرف المعارف في الغرب وارتفاع منار العلم بين اهله وعقد المجالس العلمية والنوادي الادبية والسياسية وعجائب الاكتشافات والاختراعات وارتقاء رجال السعي والجد ولا يبلغنا عن ذلك الاَّ المدح والثناء والاعجاب والاطراء ثم نلتفت الى ما بيننا من الطوائف والاحزاب والضغائن والاحقاد ووقوف فريق لفريق بالمرصاد واستصغار زيد لاعمال عمرو واحباط عمرو لمساعي بكر فنتوهم ان طريق الغربيين الى المجد والمعالي مفروش بالورد والازهار وان طريق الشرقيين محفوف بالمكاره والاخطار فنضعف منا العزائم ونصغر الهمم عن ادراك العظائم ونرضى بالذل والهوان ونترك لسوانا اطلاق العنان في ميادين العزّ والعمران . على اننا لما تنقلنا في الممالك الاوربية ووقفنا على حقيقة احوالها الداخلية واجتمعنا فيها على المادحين والقادحين علمنا ان المعالي لا تنال الاَّ بالعزائم الشداد والجد والجهاد في كل بلاد وان في الغرب امثال ما في الشرق ممن يهجو الورد ويبخس القدر ويجحد الفضل ويخفي الحق ويلقي المعاثر في سبيل السابقين لئلاَّ يغادروهُ في عداد المقصرين . وان رمت منا شاهداً فالشواهد اكثر من ان تحصى يكفيك ما نسمعهُ حتَّى في الديار الفرنسويَّة عن الاكاديمية التي سار بذكرها الركبان وقدم بفضلها الزمان وطارت شهرتها في الآفاق وبلغ قدرها السبع الطباق حتَّى كأن السمَّاك لم يقل الاَّ فيها

رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ ... الى النجم فرعٌ لا ينال طويل

وتحت قبتها السامية تسامى جهابذة فرنسا الاعلام وفي معناها تغنَّى شعراؤها العظام وقد كان لسان حالهم ينشد على كرور الايام

وتنكر ان شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقولُ

اذا سيِّد منا خلا قام سيِّد ... قؤول لما قال الكرامُ فعولُ

فلقد طالما وقف لها الاعداء الفرنسويون بالمرصاد وسلقوها بالسنة حداد وهم الآن اكثر عدداً واشدُّ باساً ما كانوا في سالف الايام يعيرونها بنقائصها ويعددون معايبها ويقولون انها هرمت من طول المدى وخرفت فلا تنفع احداً . واخبرنا باريزي يعرف حقيقة احوالها ان الدَّاعداتها سبعة من الاقطاب ومشاهير الكتَّاب الذين يحقرونها

ونستصغرهم ويدّعون انهم يزدرون انعامها وتدعي انهم لا يستحسنون اعتبارها . وقد رأينا ان نلمّ باخبار هذا المجمع اللغوي الادبي ونظهر فضائله وفواضله ولا نقضي عمّا آخذوهُ به وعبروهُ فيه عسى ان يجد المطالع في ذلك جدوى وان يكون للتدبر تبصرة وذكرى

روى المؤرخون ان رجلاً فرنسويًّا يعى ماظرب كان ينظم الشعر ويميل الى الادب في اوائل القرن السابع عشر وكان يسكن غرفة صغيرة حقيرة في باريس فيجتمع عليه رفاقهُ من الشعراء والادباء ويسهرون في غرفتهِ على كراسي صغيرة من القش ويتذاكرون في علوم الادب ويتقدون ما ينظمونهُ او يؤلفونهُ نقدًا يعم المعاني والالفاظ معًا . وفي سنة ١٦٢٩ توفي ماظرب المذكور فتعذّر على رفاقهِ الاجتماع كجاري العادة لانهم كانوا يسكنون اماكن متباعدة في جهات مختلفة من باريس فاتفق رايهم على ان يجتمعوا مرة كل اسبوع في بيت احدهم كتراد لتوسطهِ بين بيوت الباقين وان يكون الغرض من اجتماعهم المذاكرة الادبية والتعاون على تهذيب اللغة الفرنسويَّة وتهذيبها من الشوائب وكان عددهم حينئذٍ تسعة ثم انضمّ اليهم آخرون ومن جملتهم اديب يسمى مِيْنار ومرّ عليهم عدّة سنين وهم يجتمعون على ما تقدّم ولا يهتمُّ باجتماعهم احد . وكان مِيْنار المذكور آنفًا صديقًا لبوا روبير فاخبرهُ باجتماعهم وكان هذا يعلم ريشليو وزير الملك لويس الثالث عشر بكل ما يجري في باريس فاخبرهُ بذلك

وكان الكردينال المذكور وزيرًا خطيرًا عظيم الهيبة شديد الصولة نافذ الكلمة يميل الى الادب ويشتغل به على ما ذكر المؤرخون عنه . والظاهر انهُ ادرك ما يبلغ اليهِ شان تلك الحلقة فاراد تخليد ذكرهِ بين اهل الادب او أنهُ اراد ان يكون السابق الى كل مفخرة فاوعز الى بوا روبير ان قُل لهم يطلبون حمايتي ويستأذنون الملك في عقد جمعيتهم وانا اسعى في صدور البراءة اليهم . فلما بلغهم مطلب الوزير وقع الرعب في قلوبهم خوفًا من صولتهِ وقالوا مالنا وله فانهُ يسلب حريتنا ويفرق شملنا ويحل جمعيتنا وهموا ان يرفضوا الطلب لولا ان احدهم شابلين وكان ابصرهم بالعواقب عارضهم قائلاً انتم تعلمون ان الرجل خطير الشان شديد الصولة والسطوة وقد عرض علينا حمايتهُ تبرعًا بمساعدتنا فان رفضنا ذلك اسخطناهُ وعرّضنا انفسنا لانتقامهِ فيحلّ جمعيتنا ويبطل اجتماعاتنا التي نعقدها الآن بمعزل عن الناس . والرأي عندي ان نجيبهُ الى ما طلب ونستظل بظلهِ فاقتنع الآخرون بسداد رأيهِ وكتب مدير جمعيتهم دوسيريزاي كتابًا باسم الجمعية يطلب فيهِ الحماية والرعاية وانفذ الكتاب مع بوا روبير في مارس سنة ١٦٣٤ . فاجابهم الكردينال على كتابهم متوددًا متلطفًا

ووعدهم بالسعي في صدور براءة الملك لجمعيتهم واشار عليهم بان يضموا اليهم كل من يستحسنون ضمهُ ويسنوا لهم قانونًا يجرون عليهِ ويسموا الجمعية باسم تعرف بهِ . فضموا اليهم اعضاء كثيرين اوّلهم بوارو بير الذي اخبر الكردينال بهم . ثم نظروا في تسمية جمعيتهم فاقترح جماعة منهم اسماء مجازية على ما جرت بهِ عادتهم في تلك الايام ولكنهم رفضوها واتفقوا على تسميتها " بالاكاديمية الفرنسويّة " وهو ما تُسمى بهِ حتّى الآن . وانتدبوا ثلثة منهم لسن القانون واباحوا لكل عضو ان يكتب ما يعنُّ لهُ من القوانين ويعرضها عليهم فسنوا قانونًا مشتملاً على خمسين مادّة اكثرها قليل الاعتبار لا يعبأ بهِ وبعضها على غاية اللزوم والاعتبار ولاسيما مادة فحواها ان كل الاعضاء يكونون في ذلك الجمع سواء لا فرق بينهم في الرتبة والمقام . وقد كانت هذه المادة من اعظم ما وفقوا اليهِ في زمان ترفّع فيهِ الكبير عن الصغير وأُنف الرفيع من مجالسة الوضيع فاصبح اقلُّ الاعضاء ذكرًا واوضعهم منزلةً يعامَل في الجمع كما يعامل غيرهُ من الاحبار العظام والوزراء الفخام واولاد الملوك واعيان الامّة . ويحكى انهُ لما انتظم كولبير الشهير وزير الملك لويس الرابع عشر بين اعضاء الجمع خاطبهُ بعضهم قائلاً يافخامة الوزير فقال لهُ اني لست هنا وزيرًا ولا فخيمًا بل واحدًا منكم فخاطبني كما يخاطب سواي بلا تفخيم ولا تميز

ومن تلك المواد ان يكون للجمع مدبر ومشير وكاتب والاولان ينتخبان بالقرعة كل ثلثة اشهر والثالث ينتخب بالصوت ولا يغيّر طول العمر ولم يزل هذا قانونهم الى اليوم غير ان الثلثة ينتخبون بالصوت . ومنها ان يكون الجمع مطلق الحريّة والخيار في انتخاب الاعضاء ولكن هذه المادة قيّدت بمادّة أُخرى مفادها انهُ لا يعيّن عضو في الجمع ما لم يصادق حامي الجمع على تعيينهِ ومنها ان الكردينال ريشليو مؤسس الاكاديمية الفرنسويّة وحاميها وقد نقش على وجهٍ من ختمها صورة رأسهِ وتاريخ تأسيسها وعلى الوجه الآخر صورة اكليل من الغار قد كتب حولهُ هاتان الكلمتان (A l'Immortalité) ومعناها الى الابد ولذلك يلقب اعضاء الاكاديمية بالخالدين ويلقبون بالاكاديميين بالنسبة اليها ايضًا . ومنها ان يحترم كل الاعضاء في الحال والاستقبال ذكر الكردينال ريشليو حاميهم العظيم الشان ويبجّلوا قدرهُ وبشره وافضاله . ثم رفعوا اليهِ صورة هذا القانون لينظر فيهِ ويصادق عليهِ فحذف منهُ هذه المادة الاخيرة عالمًا ان الاعتبار لا يكون بالامر ولا الاحترام بالقانون فنال بذلك جميل الذكر بلا امر ولا جبر وصادق على سائر المواد ولم يعارض في تقييد التعيين بمصادقة الحامي ورضاهُ . وقد كان ملوك فرنسا حماةً لهذا الجمع بعد ذلك كما سيجيء معنا فكان الجمع يتحامى تعيين من يكرههُ

الملك والملك يخاشي التعرض للمجمع في التعيين قدر الامكان . ويروى ان لويس الرابع عشر عدل عن الاعتراض على تعيين بعض المترشحين لما علم ان الاعضاء اجمعوا على انتخابهم وان لويس السادس عشر فعل مثل ذلك ايضاً . اما في هذه الايام فلا يذكر المجمع حاجاً لكنه يعتبر رئيس الامة حاجاً له امبراطوراً كان او ملكاً او رئيس جمهورية ويعلن للعموم انتخابه العضو الذي وقع عليه الانتخاب بقوله " وقد عُرض هذا الانتخاب على رئيس الامة " والعادة ان مدير المجمع او كاتبه يقدّم كل جديد الى الملك او الى رئيس الجمهورية ويرفع العضو اليه صورة من خطبته

وصدرت البراءة من الملك لويس الثالث عشر في يناير سنة ١٦٣٥ وذكر فيها ان هذا المجمع اسسه الكاردينال ريشليو وان اسمه الاكاديمية الفرنسوية وان عدد اعضائه لا يتجاوز الاربعين ولذلك لم يزد قط عن هذا العدد فاذا مات عضو انتخب آخر بدلاً منه غير ان المجمع لا ينتخب احداً الاّ من الذين يطلبون الدخول فيه ولا يعرض الدخول على احد عرضاً ويقال ان السبب في تمنعه عن العرض انه في اوائل امره عرض الدخول على بعضهم فرفض لاسباب سياسية فكبر رفضه على اعضاء المجمع لما فيه من الاهانة وقرّروا ان لا يعرضوا على احد بعده بل ان ينتخبوا من شاؤوا ممن يطلب الدخول طلباً وكانت العادة في بادىء الامر ان الطالب يعرض طلبه على الكاتب ولا يكلّف غير ذلك ثم زاد الامر عزة حتّى ان الطالب يضطر الآن الى زيارة كل عضو من التسعة والثلاثين زيارة مخصوصة لاستعطافه الى الموافقة على انتخابه فامسى ذلك عثرة في سبيل كثيرين من الاكفاء واقطاب الادباء الذين تأبى عزة نفسهم ذاك التذلّل للجلوس تحت قبة الاكاديمية ولو كانوا اولى به واصلح له من كثيرين غيرهم . وقد قال بعض ظرفائهم في ذلك ان ابواب الاكاديمية واطئة فمن لم يطاطئ راسه كثيراً قبل الدخول اليها اصطدم بعتبها

وذُكر في البراءة ايضاً " ان جلّ القصد من تاسيس هذه الاكاديمية بذل الجهد والعناية في ترقية اللغة الفرنسوية وتهذيبها من الشوائب والاصطلاح على الالفاظ بحيث تكون لغةً فصيحةً صالحة للتعبير عن المعاني المرادة في العلوم والفنون " . وقد كانت اللغة الفرنسوية حينئذٍ كثيرة الاضطراب في معاني الفاظها والابهام في تعريف كلماتها والتعقيد في تعابيرها فرأى ريشليو ان ضبطها وتهذيبها اجلّ خدمة واسمى غاية يسعى المجمع اليها . وقرّ الرأي حينئذٍ ان يكون بلوغ تلك الغاية بوضع قاموس مطوّل في اللغة وتصنيف كتاب في النحو وآخر في البيان وآخر في صناعة الشعر غير ان الاكاديمية لم تصنّف شيئاً من هذه الثلثة

وانما ألفت القاموس وهو اشهى جناها واعظم اعمالها وقولنا انه اعظم اعمالها لا يفيد اعمال كل عضو انتظم فيها بل اهم ما عملة هيئة الاعضاء معًا للمجمع وباسم المجمع والاَّ فاعمال كل اعضائها هي اعمال الذين نبغوا من فرنسا من ارباب الاقلام ورجال الادب ولا يستوفى وصفها الاَّ بمؤلف ضخم في تاريخ علوم الآداب الفرنسوية

وفي سنة ١٦٣٥ فُوِّض الى شابلين المار ذكرهُ تحرير المثال الذي يؤلف القاموس عليهِ والفت لجنة منهُ ومن غيرهِ من الاعضاء لاتمام ذلك ولكنهم ابطأوا فيهِ كثيرًا حتَّى لفَّبهم بعض الظرفاء "باكاديمية البطالة" وعيَّن احدهم فوجيلاس رئيسًا للجنة وكانوا يهيئون المواد ويتلونها في كل جلسةٍ من جلسات المجمع وكانت الحكومة تجري على فوجيلاس المذكور معاشًا ثم قطعتهُ عنهُ فاعادهُ ريشليو اليهِ لكي يتفرغ وقتهُ في تأليف القاموس. وذهب فوجيلاس ليشكر ريشليو على هذا الجميل فقابلهُ ريشليو باسمًا ملاطفًا وقال لهُ اظنك لا تنسى ذكر المعاش في القاموس فاجابهُ لا ولا ذكر الشكر والجميل بانيافة الكردينال وقضى فوجيلاس اكثر من عشرسنين ملازمًا التحرير والتحبير مداومًا التنقيب والتنقير حتَّى ادركتهُ المنية وهو بين المحابر والاقلام وتمَّ في حياتهِ قسم يذكر من القاموس ثم تثاقل سير التأليف وابطأ العمل فيهِ. وكان كولبير الوزير الشهير من اعضاء المجمع ويقال انهُ اعتراهُ الملل من طول العمل فتصد الاعضاء الذين يشتغلون في التأليف يومًا عازمًا ان يسمعهم كلامًا ثقيلاً ودخل عليهم وهم يتباحثون في تعريف "الصديق" ويبحثون عن النصوص التي وردت فيهِ. ولما رأى ما استغرقهُ تعريف هذه الكلمة الواحدة من المراجعة والبحث والمذاكرة ادرك ان الامر اعسر مما توهم وعاد ولم يتكلم. وقضى المجمع ثلثين سنة او اكثر على وضع القاموس وفرغ منهُ سنة ١٦٧٢ قبل وفاة شابلين بسنتين وكان شابلين اول الشارعين فيهِ واعظم المهتمين بهِ. ثم وجدوا بعد الفراغ منهُ ان اوائلهُ مكتوبة بلغة قديمة لا تصلح ان تكون فيهِ فبيضوا معظمهُ وحرروهُ وقضوا على ذلك عشرين سنة اخرى ثم طبعوهُ سنة ١٦٩٤ بعد الشروع فيهِ بخمسين سنة. وطبع اول طبعة على مثال شابلين حيث رتبت الكلمات حسب اشتقاقها لا على ترتيب حروف المعجم ثم طبع مرارًا في القرن الثامن عشر وطبع طبعة سادسة سنة ٣٥ وسابعة وهي الاخيرة سنة ١٨٧٧ وكلها مرتبة على حروف المعجم. وهو القاموس المعوَّل عليهِ عند الفرنسويين فيعتبرون كل لفظة لم تذكر فيهِ من الالفاظ المولدة في لغتهم. وقد خطر لاعضاء المجمع في هذا العصر ان يستبدلوا هذا القاموس بقاموس اعظم منهُ واعم يكون اطول المطولات في لغتهم وشرعوا في ذلك ثم عدلوا عنهُ لما رأوا انهُ لا يتم في زمان

الاولاد والاحفاد بل بعد تعدُّد الاعقاب

وذُكر في مادَّة من قانون المجمع ان الاعضاء يخطبون تباعًا فيتلو كل عضو خطبةً في جلسة من الجلسات الاسبوعية امام اعضاء المجمع لتكون من جملة الوسائط في ترقية اللغة وتهذيبها ولكن ذلك لم يطُل وذُكر ايضًا ان كل عضو يخطب خطبة عند دخوله الى المجمع ولا يزال ذلك جاريًا الى اليوم. وكانت عادتهم قديمًا ان لا يحضر جلساتهم احدٌ من غير الاعضاء ولكن ذكر احدهم بروّل انهُ لما دخل المجمع خطب خطبةً فائقة في البلاغة وتحسَّر لان سامعيها كانوا قلالاً ثم التمس ان تكون جلسات الدخول علنية فاجيب التماسهُ وللناس رغبةٌ شديدة في حضور هذه الجلسات العلنية ويتسابقون اليها تسابق الجياع الى القصاع والنساء اشد رغبة في حضورها من الرجال ولذلك لا يشيع خبر دخول عضو الى المجمع حتّى ياخذ الناس في السعي واستعمال الوسائط للحصول على تذاكر الحضور قبل الجلسة باسابيع وهم انما يرغبون في ذلك هذه الرغبة الشديدة لان الخطب التي تُتلى حينئذٍ فائقة في البلاغة فريدة في حسن الانشاء وسحر البيان. ومدارها على تأبين الاعضاء الذين يخلفهم الخطباء وتعديد مناقبهم ومدح اعمالهم فيجيبهم عليها رجال يختارهم المجمع من افصح اعضائهِ وأخطبهم

وبعد صدور البراءة بتأسيس المجمع على ما تقدَّم حدثت حادثة "السيد" وليتها لم تحدث وذلك ان كورنيل الشاعر الفرنسوي المجيد نظم قصيدة السيد المشهورة ومثل الممثلون وقائعها فوقعت في النفوس اعظم موقع وكان لها دوي ورنين في الامصار حتّى انهالت على ناظمها رسائل التهانيء من شاسع الاقطار وهو يومئذٍ في ريعان الصبا وعنفوان الشباب الاّ ان ريشليو الوزير استهجنها وجاهر بذمها ذمًّا شديدًا لاسباب مجهولة. وقال قوم انهُ ذمها هذا الذم لان اهمّ ما فيها مبنيٌّ على المبارزة وكان قد بذل جهد الطاقة في إبطالها من فرنسا بعد ما شاعت بين كبارها وصغارها وزعم آخرون انهُ وَجد على كورنيل لكثرة ما سمع من مدحهِ واطرائهِ وتحدُّث الناس ببلاغتهِ وطول باعهِ فحملتهُ الغيرة على ذم شعرهِ وحطِّ قدرهِ. وانتقدها بعض الكتاب انتقادًا شديدًا وذمها ذمًّا قبيحًا تشفيًا من كورنيل وترفُّعًا الى الوزير. غير ان ريشليو لم يقنع بذلك بل اوعز الى اعضاء الاكاديمية ان ينتقدوها ويحكموا فيها وكانوا كلهم يعترفون باطنًا بمحاسنها ويسلمون ان كورنيل قد اجاد وسبق الاقران حتّى ان احدهم الاب دو سريزي قال لما سُئل عنها ليتني كنت ناظم عقودها وناسج بُرودها. وكانوا يعلمون ان ريشليو لم يكلفهم الحكم فيها ليعدلوا بل ليذموا نظمها ويحطوا قدرها

فحاروا في امرهم لانهم كانوا يخامون اسخاط رجل خطير قد غمرهم بالفضل والاحسان ويكرهون تقبيح الحسن وذم ما لا يستحق الاَّ المدح والاستحسان وحاولوا ان يتخلصوا من هذا المشكل بقولهم ان قانون المجمع لا يجيز لنا الحكم في مؤلف او مصنَّف الاَّ اذا كان ذلك بطلب صاحبه ورضاهُ فلم يكن هذا العذر ليردَّ ريشليو عن بغيته بل انهُ انفذ بوا رويير الى كورنيل وقال لهُ لا تخرج من عندهِ الاَّ بعد ما تبلغ المرام منهُ ويطلب من المجمع الحكم في روايتهِ فالحَّ بوا رويير على كورنيل وقال لهُ ان هذا الطلب يرضي الوزير ولم يزل بهِ حتَّى اجابهُ كورنيل الى طلبهِ كرهًا وقال لهُ ما دام ذلك يرضي الكردينال فليفعل اعضاء المجمع ما شاؤوا اذ لم يبقَ لي كلام بعد الذي قلتهُ ونزل الطلب كالقضاء المبرم على الاعضاء وعلموا ان لا مناص لهم من ابداء رأيهم فجعلوا يماطلون ولم يصدروا الحكم الاَّ بعد ستة اشهر . وكتب شابلين صورة الحكم وارسلها الى ريشليو ونحواها ان كورنيل خالف الصناعة وحاد عن الاصول في نظم تلك الفصول . وارضوا ريشليو بالحكم عليها لا لها خلافًا لحقيقة اعتقادهم كما تشهد الرسائل الخصوصية التي كتبها كثيرون منهم الى اصدقائهم . وطُبع حكمهم هذا في رسالة على حدتها وحفظ حجَّة عليهم يعيِّرهم بها اعداؤهم حتَّى اليوم ويؤيدون بها دعاويهم على انهم هيئة غير مستقلة في الآراء والاقوال تنقاد الى مطالب حماتها من الملوك والوزراء وهي ذليلة صاغرة . وكان شابلين كاتبها اعظم الاعضاء مراعاة لاحوال المكان واكثرهم مداراةً لاحكام الزمان لا يكاتب ريشليو الاَّ بالتبجيل والتعظيم والمبالغة في تملقهِ واطرائهِ مما يعاب التداني اليهِ على مَن كان في طبقتهِ من رجال العلم والادب ولكن الكتَّاب يلتمسون لهُ عذرًا عن ذلك بان بضاعة الادب كانت كاسدة في تلك الايام وان الادباء لم يكن يعرف لهم مقام ولا تقوم لهم قائمة الاَّ في ظل رجل كبير او وزير خطير كالكردينال ريشليو . فيُغتفر معهم والحالة هذه ما لا يغتفر مع اقطاب هذه الايام الذين قد يفوقون الوزراء اعتبارًا ويعدُّون ارفع منهم منزلة وربما اصاب اولئك الكتاب في اعتذارهم فان الاكاديمية بلغت في ظل ريشليو مقامًا رفيعًا وباتت في البلاد قوةً وطودًا راسخًا وبثت حب العلم والادب في نفوس السراة والاعيان واعلت مقام العلماء والادباء في بلادٍ لا يزال اهلها الى اليوم اعرف الناس بقدر ذوي العقول الثاقبة والمواهب الفائقة واسرعهم الى اعلاء شأنهم وتعظيم اعتبارهم

وتوفي الكردينال ريشليو سنة ١٦٤٢ وخلفهُ الوزير سيغيه في الوزارة وكان من الاعضاء فطلب اليهِ المجمع ان يكون حامية مكان ريشليو فقبل ذلك ثم استعفى منهُ بحجة

انهُ عضوٌ في المجمع والقانون يقضي بان يكون مساوياً لسائر الاعضاء فلا يصح ان يبنّ عليهم بوضع المجمع تحت حمايتهِ . ثم عرض قصرهُ على الاعضاء لعقد الجلسات فيهِ وكانوا قبل ذلك يعقدونها تارةً في بيت هذا العضو وطوراً في بيت ذاك لعدم وجود محل خاص بهم فاستمرّوا على الاجتماع في قصرهِ ثلثين سنة وكانوا يعتبرونهُ اعتباراً خاصاً و يحترمون رايهُ ويعملون بهِ في ترجيح الآراء عند انقسامها ويقال انهُ لم يتعرّض لهم في شيء بسوء حرّيتهم على الاطلاق غير ان البعض يلومونهُ لانهُ كان علة دخول جماعة من الاشراف الذين دخلوا بالنظر الى مقامهم لا بالنظر الى علمهم وفضلهم

وتوفي سيفيه سنة ١٦٧٢ وكانت الاكاديمية حينئذٍ واسعة الشهرة بعدة الصيت وفيها كثيرون من الاعضاء الذين نبغوا في المعارف والآداب . وكان الملك لويس الرابع عشر في ابّان مجدهِ وريعان شبابهِ فعرّض برغبتهِ في ان تكون الاكاديمية تحت حمايتهِ . وتلقى الاعضاء ذلك بالفخر والسرور وذهبوا جميعاً لتأدية الشكر اليهِ في قصرهِ . والتفت الملك فرأى وزيرهُ كولبير بينهم فطلب اليهِ ان يعرّفهُ باسم كلٍّ منهم على حدتهِ ثم انفرد بهِ وقال لهُ قل لي ما الذي افعلهُ لارضي هؤلاء السادة فلم يغفل كولبير من ذلك الحين فرصة لخدمة العلوم والمعارف وترقية الآداب والفنون . وكان الملك يعامل الاكاديمية معاملة الملوك للاخصّاء فافرغ لها قاعة المداولة في قصر اللوفر لعقد الجلسات فيها ولم يردّ لهم سؤالاً في كبيرة او صغيرة ويحكى ان الكردينال داستري عجز وطعن في السن حتّى صار يستصعب الجلوس على الكرسي الصغيرة التي كان الاعضاء يجلسون عليها فكتب الى الملك حامي الاكاديمية يستأذنهُ في الجلوس على كرسي كبير ذي ساعدين (فوتيل) مثل كرسي المدير والاّ اضطرّ الى الانقطاع عن الاجتماع لما بهِ من الضعف وعجز الشيخوخة فاجابهُ الملك الى طلبهِ وارسل اربعين كرسيًّا من تلك الكراسي الى جميع الاعضاء حتّى لا يكون ثمّ محلٌّ للغيرة

قلنا ان ريشليو جعل الاكاديمية في البلاد قوةً ولكن لويس الرابع عشر ادناها من ذات الملك وكما قال قولة المشهور ان الدولة هي انا[1] كان يقول عن الاكاديمية هذه اكاديميتي وامر بان يأتي منها ستة اعضاء بالنيابة عنها الى قصرهِ في كل الرسوم والاحتفالات والاعياد الملكية . وقال بعض المؤرخين ان لويس الرابع عشر كان محبًّا للشعر والبلاغة والنظم والنثر ولكنهُ كان اشدّ حبًّا بهما عند استعمالهما في مدحهِ ووصف فعالهِ ولذلك كنت لا ترى بين "المخالدين" الاّ خطباء يصفون نصرهُ وفتوحهُ وشعراء ينظمون القريض في مديحهِ كأنّ

(1) L'Etat c'est moi

مجمعهم انشئ للمدح والثناء والتنبيه والاطراء وهذا ايضاً من جملة ما يؤاخذهم عليهِ المتقدمون ويعيرونهم بهِ الى اليوم غير ان الآخرين يعتذرون عنهم بان لويس الرابع عشر سحر العقول واختلب الالباب حتى لقبهُ قومهُ بالملك الشمس لاشراق مجدهِ وسمو مقامهِ واوشكوا لولا اتقاء الباري ان يؤلهوهُ ويعبدوهُ حتى ان راسين كبير شعرائهم مات حزناً وكمداً لان الملك سخط عليهِ ونظر اليهِ شزراً على ما رواهُ المؤرخون فلا عجب اذا جرى "الخالدون" مجراهم وركبوا معهم دواهم انما هم بشر مثلهم وخاضعون لاحكام المكان والزمان معهم . غير ان اللغة الفرنسوية كانت دائماً في تقدم وارتقاء وتهذيب واتقان و بلغت في ذلك الحين غاية الحسن والكمال اذ لم يتم بعدهُ من فاق بوسويه في بلاغة خطبهِ او راسين في محاسن نظمهِ . وعاشت الآداب الفرنسوية في ظلها وابتعت ونبغ الكتّاب والخطباء والشعراء من كل ناحية وسالت قرائحهم بما يبقي فخراً للفرنسويين على توالي الايام و بعدهُ من معجزات الدهر في كل زمان . وتحلّى جيد المجمع بقلادة من فحول البلغاء وجهابذة الخطباء والادباء وخنادذ الشعراء مثل كورنيل وراسين و بوالو ولابرويار وفنلون وبوسويه ولعلهُ اجلهم شاناً وارفعهم مكاناً كل هذا قبل ان يتم المجمع السنة الخامسة والثلاثين من تأسيسهِ فامتاز ذلك القرن بنوابغهِ ورجالهِ الفخام كما امتاز بفتوح لويس الرابع عشر وفعالهِ العظام

هذا ولما اسّس ريشليو الاكاديمية لم يعيّن لاعضائها رواتب لا ضناً منهُ بالمال اذ كان قد عيّن معاشاً لكثيرين من رجال العلم والادب بل لكي يكون اعضاؤها مستقلين قولاً ورأياً ولا يتطلعوا في سلكها طمعاً بمال يكتسبونهُ منها . ولكن لما ترعّع كولبير في دست الوزارة ورأى اضطراب جلساتها لعدم انتظام الحضور فيها وان كثيرين من الاعضاء يأتون الجلسة وغيرهم خارج منها تلافى هذا الخلل بوضع دفتر فيها يدرج كلٌ من الاعضاء اسمهُ فيهِ واوقات حضورهِ وامر ان يوزّع اربعون قطعة من النضة في كل جلسة على من يحضرها من الاعضاء دون سواهم فيعطى الحاضر منهم نصيب الغائب واتفق انهُ لم يحضر احد من الاعضاء في احدى الجلسات الاّ شيخ طاعن في السن فتلقف المال وخرج غانماً مسروراً . غير ان توزيع هذا المال في الجلسات لم يقع موقع الاستحسان فعارض الاعضاء وغير الاعضاء فيهِ بحجة انهُ يمنع استقلالهم وردّ عليهم كولبير بان المال كلهُ لا يبلغ بضع مئين من الفرنكات في العام فلا حذر منهُ فاذعنوا الى اقوالهِ وجرت العادة بتوزيع المال الى اليوم فان كل عضو يقبض مبلغاً صغيراً في الشهر وخمسين جنيهاً في السنة علاوة على ذلك

ولما توفي لويس الرابع عشر تولى الحماية بعدهُ لويس الخامس عشر فالسادس عشر

فالسابع عشر . واشتهر المجمع في القرن الثامن عشر بفخ ابوابه لكل من يستحق الانتظام في سلكه ولو ندّ عن النهج المتبع في آرائه وكتاباته فانهُ ادخل زعماء كل الطوائف الفلسفية التي نشأت في غضون ذلك ولم يستثنِ احداً منها الاّ ورسو المشهور . ومن مآثره التي تذكر فتشكر تنزّه كل اعضائه عن الاشتراك في فظائع الثورة الفرنسوية مع ان جماعة منهم كانوا يرغبون فيها ويرون رأي زعمائها . غير انهم لما رأوهم يسفكون دماء الابرياء ويقدمون على قتل الملوك والامراء ويقضون بموت الاجلاء والفضلاء اعرضوا عنهم بوجوه باسرة وتبرأوا ممّا تجنيه ايديهم الخاسرة ولم يتآمروا معهم على قتل ملك ولا وافقوهم على سفك دم . وبقي قليلون من الاعضاء في باريس سنة ١٧٩٣ وهي المعروفة عند الاوربيين بزمان «ملك الرعب والهول» واما الآخرون فبعضهم مات ولم يخلفهُ احد والبعض قتل في الثورة والبعض نفي من البلاد . وكان الباقون في باريس يعقدون الجلسات كل اسبوع على جاري العادة ومديرهم حينئذٍ المسيو مورله وكان يسهر على المجمع بعين ويتقي غوائل رجال الثورة بأخرى واحسّ يوماً بما يضمرونهُ لمجمعهم وسائر المجامع العلمية والادبية فبادر الى اخفاء البراءة والقانون ومعظم الاوراق في دارهِ ووضع صور الاعضاء في غرفة واقفل عليها بالاقفال واخفى المفاتيح . وفي ٨ اغسطس سنة ١٧٩٣ صدر الامر بالغاء الاكاديمية والغاء ما سواها بحجة انها مجامع غير نافعة وأقفلت ابوابها وأُعلن ان املاكها واملاك ما سواها صارت ملكاً للجمهورية

ولكن زمان ملك الرعب والهول انقضى بعد سنتين وصدر الامر في سنة ١٧٩٥ بانشاء نادٍ تعاد فيهِ كلّ المجامع التي أُلغيت وسمي ذلك النادي بالانستيتو[1] وقسم في بادىء امرهِ ثلثة اقسام احدها ينوب مناب الاكاديمية الفرنسوية . ثم لما عيّن بونابرت قنصلاً لفرنسا وسّع الانستيتو سنة ١٨٠٣ وغيّر فيهِ وقسمهُ الى اربعة اقسام ثانيها قسم اللغة الفرنسوية وآدابها وهو الاكاديمية الفرنسوية بعينها وانما سمّيت باسم آخر وردّ اليها كثيرًا من قوانينها واصطلاحاتها القديمة . وكان بونابرت ميالاً الى احيائها وردها الى سابق عزها ولكن كانت ابصارهُ طامحة الى التسلط عليها كتسلطهِ على ما سواها . على ان اعضاءها لم يكونوا

(1) L'Institut de France وهو يشتمل الآن على خمس اكاديميات وهي اولاً الاكاديمية الفرنسوية . وثانياً اكاديمية النقوش والصناعات الجميلة . وثالثاً اكاديمية العلوم . ورابعاً اكاديمية الفنون اللطيفة . وخامساً اكاديمية العلوم الادبية والسياسية . والاولى اعظمها واهمها حتى اذا قيل الاكاديمية على اطلاقها لم يفهم غيرها . والدخول فيها اقصى غايات الشرف التي يتمناها اعضاء الاكاديميات الاخرى

يجارونه على علاته ولا يخالفون اعتقادهم لمطاوعته فانه طلب من احدهم دليل ان ينظم قصيدة في مدح بعض افعاله فابى ان يجيب الطلب قائلاً انها مظالم تذم ولا تمدح . ورغب الى احدهم سوار بعد قتل دوق انغيان ان يكتب و يهدي الامة الى سواء السبيل « و يقوّم عواطفها بعد اعوجاجها » فابى ان يكتب كلمةً في ذلك . وبلغت المقاومة غايتها في الحادثة التي جرت له مع شاتوبريان الكاتب المشهور وذلك انهُ لما انتخب شاتوبريان عضوًا وعيّن يوم تلاوة الخطبة على جاري العادة طلب بونابرت ان يطالعها قبل تلاوتها . وكان شاتوبريان قد اطال بها في وصف الحرية واطنب في مدحها وقال انها لازمة للعلوم والمعارف لزوم الهواء لحياة الابدان ولذلك كانت صديقًا ملازمًا لها تلتجئ اليها اذا نفيت من الاوطان وربوع السكان الى غير ذلك من التعريض . فلما طالعها بونابرت استشاط غيظًا وقال لو ان شاتوبريان تلا هذه الخطبة على الناس لزججته في احرج السجون وجعلته عبرةً للعالمين واقفلت ابواب الاكاديمية إقفالاً . ثم استدعى مديرها وقال لهُ متى يافلان صارت جمعيتكم جمعية سياسية حتّى تأتونا بهذه الخطبة . عليكم بنظم الشعر وتصحيح اغلاط اللغة ولا تتعدوا حدودكم والاّ فاني اردُّكم اليها رغمًا عنكم . ثم ضرب على ما لم يعجبهُ في الخطبة بقلم غليظ وردّها الى صاحبها . وطلب اعضاء المجمع من شاتوبريان ان يضرب عنها صفحًا ويتلو خطبةً غيرها دفعًا للقيل والقال فابى ساخطًا و بقي انتخابهُ غير ملغًى ولكنهُ لم يثبّت ولم يجلس بين اعضاء المجمع الاّ بعد ما تلّ عرش الامبراطورية وعادت الدولة الملكية . واصدر لويس الثامن عشر امرهُ برد الاكاديمية الفرنسويّة باسمها وقوانينها وامتيازاتها واصطلاحاتها واعلن انهُ حاميها وذلك في ٣١ مارس سنة ١٨١٦ الاّ انهُ حذف اسماء ١١ عضوًا من قائمة اعضائها وحرمهم من حقوقهم فيها لكونهم من حزب الثورة او من حزب بونابرت وعيّن اعضاء من رجال والمقيمين على ولائهِ بامرهِ و بغير انتخاب من الاعضاء . وكان بعض الذين عينهم من اقل الناس استحقاقًا للانتظام في سلك اعضائها وانما عينهم اعتبارًا لآرائهم السياسية وميلهم اليهِ ودانت الاكاديمية لامرهِ صاغرة وقبلتهم بين اعضائها بلا معارضة وهذا من جملة العيوب التي تعيَّر بها وتؤاخذ عليها ايضًا . والظاهر انها خجلت بعد ذلك من ضعفها فجعلت تترصد الفرص لرفع العار عنها في ايام خليفتهِ شارل العاشر حتّى اذا عرضت حكومتهُ على مجلس النواب لائحةً تتعرّض لحرية المطبوعات اعترضوا عليها كلهم معًا قبل ان ينظروا فيها وعقد كل الذين كانوا منهم في باريس جلسة خطب فيها لاكرتلّ وحرضهم على المعارضة قائلاً « أترضون ان تقيَّد حريّة الافكار في فرنسا وتذل صاغرةً ارضاء لولاة

الامور» . وقرّ قرارهم على رفع عريضة للملك حاميهم يشتها ثلثة منهم وطلب مديرهم مقابلة الملك لتقديم العريضة فرفض مقابلتهم وعاملهم اشد معاملة وعزلهم من وظائفهم لانهم هم الثلثة كانوا اشد الجميع سعياً في المعارضة وتحريضاً على المقاومة . غير ان اللائحة لم تنفذ لان مجلس النواب ابى المصادقة عليها

هذا ويعلم المطلعون على تاريخ علوم الآداب الفرنسوية انهُ من عهد شاتوبريان ومدام دوستايل نهج فريق من الكتّاب والادباء منهجاً جديداً في صناعة النثر والنظم والانشاء وبقي الفريق الآخر محافظاً على القواعد والصور والاصول القديمة جاعلاً غايتهُ تقليد المتقدمين في الانشاء والبلاغة والشعر ولقب الفريق الاوّل « بالرومنتيك » تمييزاً لهُ عن الفريق الثاني الذي لقب « بالكلاسيك » وهما شبيهان بالمولّدين والجاهلية عند العرب . ويؤخذ مما اوردناهُ من تاريخ الاكاديمية ان ضلعها كان مع الفريق الثاني لان دأبها المحافظة على تقاليد المتقدمين والخوف من كل بدعة وخصوصاً في اوائلها . على انها لم تتعرّض مع ذلك للفريق الاوّل ولا اقفلت ابوابها دون رجالهِ ولا اشتركت مع كاتبها اوجر وغيرهِ من اعضائها حين اضطرمت الحرب بينهم وبين طائفة الرومنتيك سنة ١٨٢٤ بل انها ادخلت شاتوبريان بين اعضائها ثم ادخلت آخرين بعدهُ ومن جملتهم دو لامرتين سنة ١٨٤٠ وفكتور هوغو الذي لا يزال ذكرهُ برن في الآذان

وقد أهمل امر الحامي في هذه الايام غير ان المجمع قلما غير من عوائدهِ واصطلاحاتهِ التي جرى عليها في ايام ريشليو منذ ٢٥٠ سنة فلا يزال يجلس جلسة في الاسبوع بلا انقطاع على مر السنة وجلستين في الاسبوع في الاشهر التي يمنح جوائزهُ فيها فانهُ اصبح بعد ضيق ذات يدهِ وضعة اصلهِ مجمعاً كثير الاموال والجوائز بما عندهُ من الهبات والتركات والناس يتسابقون الى الحصول على جوائزهِ الآن تسابقاً لم يكن لهُ مثيل من قبل مع ما يسمعونهُ من اعدائهِ ومبغضيهِ من الطعن فيهِ . وهو يعقد جلساتهِ منذ سنة ١٨٠٨ في قصر مازارين ذي القبة العالية . ومنها قولهم انما تبلغ قمة المجد في العلم بعد الجلوس تحت القبة العالية . يكنون بذلك عن الانتظام في سلك الاكاديمية

ومما يدل على رغبة الناس فيها مهما قيل في ذمها انهُ لما توفي أميل أوجيه احد اعضائها ترشّح للانتخاب مكانهُ ١٣ نفساً (ثم بلغوا ١٥) وتعيّن يوم الانتخاب في اول ماي سنة ١٨٩٠ وقد كشف بعض الكتّاب الفرنسويين الحجاب عن حقيقة احوال الانتخاب في هذه الايام واثبت ان العوامل السياسية والاغراض الخصوصية والاميال والوسائط تلفي الانقسام بين

الاعضاء وتقيد حريتهم في الانتخاب ولو كان زمان ريشليو قد فات ورئيس الجمهورية لا يتعرّض لم على الاطلاق . ولما ازف يوم الانتخاب حضر الاعضاء من كل ناحية لعظم اهتمامهم بالامر وكان ريبان يومئذٍ طريح الفراش يشكو من داء النقرس فطلب ان يحملوهُ الى قاعة الاجتماع حملاً حتّى لا يفوتهُ الانتخاب ولم يتأخر احدٌ عن الحضور الاَّ دوق دومال الذي كان في سيسيليا وبعد الظهر بساعة افتتحت الجلسة وقرأ الكاتب رسائل كل المترشحين وقال على سبيل العادة ان كل عضو حرٌّ مطلق في انتخابهِ ثم أُخذت الاصوات سبع مرات ولم تجتمع الاكثرية على احد بل لم ينل احدٌ اكثر من ١٠ اصوات والواجب ان يجتمع اكثر من نصف الاصوات على المترشح حتّى ينتخب . ولما رأى المدير ذلك اشار بتاجيل الانتخاب الى جلسة أُخرى فقر القرار على ان يؤجل الى شهر ديسمبر من السنة الماضية

وكان بين المترشحين اناس من المؤرخين والمنتقدين ومؤلفي الروايات والشعراء والعلماء وغيرهم وكان بعضهم من المشاهير وآخرون من الذين لم يشتهروا في اوربا ولا في فرنسا بلادهم وغلب على ظن الناس ان الانتخاب يقع على استاذ التاريخ في مدرسة سوربون لما لهُ من الكتابات التاريخية المشهورة والاصدقاء الوجهاء ذوي الكلمة النافذة . او على مؤرّخ معدود يسمّى تيرو دانجن ولهُ كتب حسان في التاريخ . ولكن ترشح بعد ذلك المسيو فراسينه وهو رئيس النظار وناظر الحربية وليس لهُ بين رجال العلم والادب مقام يذكر فلما اخذت الاصوات في ١١ ديسمبر اتفق ٣٠ صوتاً من ٣٨ على انتخابهِ فانتخب عضواً اعتبارياً لمنصبهِ ونفوذهِ ورُفض الآخرون ولم يغنِ عنهم فتيلاً . وقد كثر القيل والقال على اثر ذلك فاعتذر انصارهُ بانهُ خدم وطنهُ خدمة جليلة لا تنكر وابواب الاكاديمية لم تُغلق في وجه من خدم خدمة عمومية ولو بغير علمٍ وقلمٍ

هذا وقد مرّ معنا ان الاكاديمية لم تسلم قط من ذم المبغضين وطعن المقاومين وان اعداءها باتوا في هذه الايام اكثر عدداً واشد باساً مما كانوا في الايام الغابرة وهم يحملون عليها حملات تدك الاطواد ويدعون ان زمانها فات ولم يبقَ منها نفع للبلاد ويعيرونها بعيوب لا تنكر مثل قولهم انها متطرفة في نقدها حتّى لو انتصر الامر عليها لاعتور اللغة الضعف كما في خوفها من كل بدعةٍ مثلاً وابتعادها عنها ولو كانت حسنة حميدة حذراً من ان تمس كرامتها ومثل ذكرهم تذللها للملوك والوزراء ومطاوعتها لهم على مخالفة اعتقادها . ومثل منعها كثيرين من ذوي العلم والادب والقرائح الفائقة من الدخول اليها لاسباب سياسية واغراض ومآرب خصوصية ودسائس خارجية وكذلك انتخابها

كثيرين من الذين لا يستحقون الدخول فيها لمثل تلك الاسباب . على انهُ بقدر ما يزيد اعداؤها يزيد الراغبون فيها والمتسابقون الى احراز جوائزها والطالبون الانتظام في سلك عضويتها . وذلك يقوي الامل انها تدوم مشيدة كما ثبتت على عواصف الدهر وصروف الزمان نحوًا من ٢٦٠ سنة وبقيت على عوائدها وقوانينها واصطلاحاتها لا سيما وانها هذبت اللغة الفرنسويَّة ونقتها من شوائبها ورقتها بين اللغات فصيرتها من اصلحها للتعبير عن اسمى المعاني وادقها ببلاغة ووضوح وجلاء ورفعت منار الآداب والمعارف واعلت منزلة العلماء والادباء بعد ما كانوا يعيشون في الهوان ويموتون في الهوان وثبت حب المعارف في نفوس اشراف البلاد وسرائها ووجوهها واعيانها واعانت كثيرين من الذين كانوا لولاها يقضون العمر وهم يكدون ويجدُّون ولا يجدون من يظللهم بمثل ظلها او من يشد أزرهم مثل حمايتها . وجمعت في صدرها اعظم عقول فرنسا ونوابغها واشهر من ينتفع الناس بعلمهِ وفضلهِ ونزاهتهِ واستقامتهِ وحلمهِ وشجاعتهِ في المدافعة عن حريتهِ وحرية جمعيتهِ . فمهما كانت معايبها كثيرة فانها تخفى بجانب محاسنها ومهما كانت مضارها فانها لا تذكر بالنسبة الى منافعها

ومن ذا الذي ترضى سجاياهُ كلها كفى المرء نبلاً ان تعدَّ معايبُه

مؤتمر اللغات الشرقية

تمهيد

"خذوا لغتكم عن اعجمي" كلام سمعهُ العرب منذ مئات من السنين ولم يزالوا يسمعونهُ لا لان العربية اشرف اللغات واوسعها وارفعها شأنًا بل لان الشعوب الآرية والطورانية اشدُّ جلدًا من الشعوب الساميَّة على البحث والتنقيب ولهذا كان اكثر حَمَلَة العلم في الاسلام من الاعاجم كما قال ابن خلدون . والآن ترى الالماني والانكليزي والفرنسوي يدرسون العربية والعبرانية والسريانية اكثر من ابنائها وشاهدنا كتبهم الكثيرة وجرائدهم ومؤتمراتهم الموقوفة للغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية

اما المؤتمر الذي عُقد في مدينة لندن هذا العام فقد شاع عندنا انهُ غير قانوني وحقيقة الامر ان علماء اللغات الشرقية انقسموا في الاجتماع الماضي الذي عُقد في ستكهلم فعقد بعضهم